الناس يشعر عكس ذلك بالتمام. فالإنسان في نظر هؤلاء يتقهقر سراعاً إلى الحيوان ويوشك أن يُمسخ قرداً.

ما دمنا بعيدين كلّ البعد عن التألّق والتألّه فنحن بعيدون عن النور، وعن الحريّة التي لا تعيش إلّا بالنور وفي النور، وعن الإخاء الذي لا ينبت إلّا في حمى الحريّة، وعن المساواة التي لا تقوم بغير الإخاء. ونحن كلّما تلفظنا باسم النور والحريّة والإخاء والمساواة كما لو كانت أموراً عجنّاها وخبزناها وتذوّقناها كان تلفظنا تجديفاً على النور والحريّة والإخاء والمساواة، وكنّا كمن يتداولون فيما بينهم نقوداً زائفة وهم لا يعلمون. أمّا إذا ذكرناها كما يذكر العابد الخاشع معبوده، والعاشق الولهان معشوقه، فذكرها إذ ذاك تبريك لنا وتقديس، ومهماز يحثّنا على التفتيش عنها للحظوة ببهجتها التي لا توصف وكمالها الذي يفوق حدّ التصوّر.

إنّ ما توهّمه البعض نوراً في محاجر هذا العصر ما كان، كما أسلفت، أكثر من وُميضات الحباحب في الليالي الدامسات. ولكن هذه الوميضات كانت أشدّ بريقاً من أخواتها في العصور الخوالي. وهي جميعها ناتجة عن احتكاك العقل البشري بالمجهول. وذلك الاحتكاك كان بطيئاً في ما مضى لأنّه كان موزّعاً بين شعوب تباعدت تخومها،